حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الثالث ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٤هـ / تموز ـ ٢٠١٣م

٣

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مسجد الكوفة المعظم سنة ١٩٣٥م يظهر فيها محراب أمير المؤمنين وبقية المحاريب المقدسة للأنبياء والصالحين

مؤلفات الفضائل والمفاخرات عن الكوفة حتى أواسط القرن الخامس الهجري

الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة المؤلفات العربية والإسلامية، التي ألفها العرب والمسلمون بصورة خاصة عن مدينة الكوفة، وهي تلك المؤلفات التي عنيت بالفضائل والمفاخرات الخاصة بمدينة الكوفة، وحتى أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك من خلال ذكرها في المصادر والمراجع العربية، وسنعرض بالدراسة أولاً لمؤلفي هذه المؤلفات من كتب ورسائل، بإيضاح حياتهم وخصائص كتابتهم التاريخية وظروف نشأتهم وتأليفهم لتلك المؤلفات بشكل مركز، كما سنشير إلى المصادر التي ذكرتها أو اقتبست منها، وسنجد بين هؤلاء المؤلفين من هم من أهل الكوفة نفسها، فضلاً عن مؤلفين آخرين من الأمصار العربية والإسلامية الأخرى، مما يدلل على أهمية مدينة الكوفة ودورها ومكانتها المتميزة في التاريخ العربي الإسلامي.

من المؤسف حقاً أن معظم هذه المؤلفات العربية والإسلامية عن الكوفة، مفقودة في الوقت الحاضر، وإن اليسير منها ما يزال مخطوطاً غير منشور، والمنشور منها ضئيل جداً، وبذلك لم يبق من تلك المؤلفات سوى عنواناتها وبعض الروايات المقتضبة جداً عنها، وهي روايات متناثرة في تضاعيف المصادر والمؤلفات التاريخية، لا تكون لنا صورة واضحة عنها؛ لأن كثيراً من المؤلفات الخاصة بمدينة الكوفة تعرضت للتلف والضياع.

لقد قطعت الكوفة شوطاً بعيداً في المدنية والحضارة العربية الإسلامية، وأصبحت مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري، تمد الأمصار الأخرى بنور حضارتها الساطع وإشعاع فكرها النابض، ولم تبق تلك الحضارة مقتصرة على مدينة الكوفة، بل تجاوز أثرها أسوارها، وانطلق في العراق كله، كما غمر أمصاراً أخرى من العالم العربي الإسلامي.

سيكون منهجنا في بحثنا هذا، دراسة كتب الفضائل والمحاسن والمفاخرات، المؤلفة خصيصاً عن مدينة الكوفة وحسب تسلسل مؤلفيها، نسبق ذلك بدراسة مركزة عن أهمية الكوفة والتأليف عنها، ثم دراسة حياة كل مؤلف ودراسة المعلومات المتعلقة بمؤلفه، مع مراعاة التسلسل الزمني للمؤلفين-كما ذكرنا.

أهمية الكوفة:

تتضح لنا بجلاء أهمية مدينة الكوفة ومكانتها ودورها في التاريخ والفكر العربي الإسلامي، وذلك من خلال عدة عوامل وظروف ذات أهمية متميزة، فالمعروف أن هذه المدينة كانت ثاني مصر -بعد البصرة- أسس خارج شبه الجزيرة العربية في الإسلام، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٧هـ/٦٣٨م، إذ كانت معسكراً للمقاتلين العرب، أسهمت إسهاماً فعالاً في حروب التحرير العربية الإسلامية، خصوصاً في جبهة المشرق، ومثلما اتخذ المقاتلون المرافقون للقائد عتبة بن غزوان مدينة البصرة موطناً لهم ومهما كان عددهم، فإنهم كانوا جميعاً عرباً ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة، كذلك اتخذ المقاتلون المرافقون للقائد سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة موطناً لهم، وظلت تلك السمة ملازمة لبنية المدينتين الاجتماعية، بعد استكمال التحرير ونشر الإسلام في العراق وما جاوره[1].

وإذا قارنا بين أكبر مدينتين من معسكرات الإسلام في عهده الأول، وهما: البصرة والكوفة، وجدنا أن الكوفة أكثر عروبة من أختها البصرة، وأكثر منها تأثّراً بالأوضاع السياسية؛ لأنها ضمت عناصر اجتماعية أكثر عدداً، إذ استقر فيها المحررون المنتصرون في معارك: القادسية والمدائن وجلولاء، أو أولئك الذين سارعوا إلى تلبية نداء الجهاد، من أهل اليمن والحجاز وسواد الفرات، وخلال الثلاثين سنة الأولى

(١) ناجي، د.عبد الجبار، إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية، منشورات دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠م، ص٤٧.

من الهجرة، كانت الكوفة هي المصر لا تضاهيها مدينة أخرى، كانت قبة الإسلام ورأس (جمجمة) العرب، كانت جمجمات العرب حسب التعبير المنسوب إلى الخليفة عمر، الذي جعلها مركزاً لتنظيماته العسكرية والمالية، في حين أن البصرة لم تلعب دوراً مهماً إلا في خلافة عثمان بن عفان، وبدأت كذلك في منافسة الكوفة، وذلك بعد فتح خراسان من قبل رجالها؛ بسبب استئثارها بموارد المشرق، لتيسير ذلك الفتح[١].

أدى استقرار أولى الجيوش المقاتلة في الكوفة -وكانوا في غالبيتهم من ربيعة واليمن- إلى انتشار الفعاليات الاجتماعية والثقافية وتطور سكانها الوافدين إليها، فأنجبت عدداً من المؤرخين والنسابة ورواد الفكر العربي الإسلامي في مختلف نواحي المعرفة الأخرى، ووجدنا بين من ألّف عن الكوفة، مؤلّفين كوفيين وآخرين من الأمصار العربية والإسلامية الأخرى، وذلك يؤكد -بلا شك- دليلاً على الامتزاج الروحي والفكري الذي تكوّن بفضل الإسلام وتوحيده للمجتمع الجديد.

كانت الكوفة والبصرة المصرين الوحيدين في العراق في ذلك الوقت، ومن الطبيعي جداً أن تقوم بينهما علاقات متينة ومستمرة بعد تمصيرهما، فكانت الأحداث التي تقع في الكوفة سرعان ما تجد صداها في البصرة، واتجه عدد من الكوفيين للاستقرار في البصرة، بسبب تدهور الأحوال السياسية من جهة، والرغبة في الكسب والربح من خلال الاشتغال في التجارة من جهة أخرى، كما اتخذ عدد من البصريين الكوفة مدينة ومقاماً لهم؛ لأنها أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية لمدة خمس سنوات، بعد انتقال الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام) إليها من المدينة المنورة، واتخذت مركزاً للفقه والحديث واللغة وقراءة القرآن ورواية الشعر والأدب، وليس من المبالغة القول أن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي هو تاريخ البصرة والكوفة، لما لعبا من أدوار سياسية وإدارية وعسكرية مهمة جداً، كما أنه ليس غريباً القول أن هذين المصرين اقتسما الحركة الفكرية العربية خلال ذلك القرن، بما أسهما به من مدارس نحوية وأدبية عرفت باسميهما وهما: مدرسة النحو البصرية ومدرسة النحو الكوفية[٢].

أصبحت البصرة أكثر هدوءاً من الكوفة وأوسع انفتاحاً للمؤثرات الخارجية، وكان لها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي دور ثقافي مهم جداً، وفي الكوفة تركز الصراع بين القيم العربية الإسلامية وبين القيم الفارسية، منذ القرن الأول الهجري، وكان من أبرز نتائج ذلك، ظهور تيارات فكرية واتجاهات عقلية متباينة لها آثارها المباشرة في حياة المسلمين، علماً أن البصرة سبقت الكوفة إلى الاستقرار والهدوء، وساعد ذلك أهلها على الاشتغال بالعلوم، والاستفادة من الثقافات والعلوم المنقولة إليها مع العناصر الأجنبية الوافدة، من الفرس والهنود واليونان وغيرهم في بيئة مستقرة هادئة بدأت فيها بواكير العلوم[٣].

تتضح لنا بجلاء أهمية كل من البصرة والكوفة في مصادرنا العربية والإسلامية، فالمعروف أنهما يعدان من أوائل الأمصار الإسلامية القديمة التي أسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية، وقد ارتبطا ارتباطاً قوياً، بحيث صار يطلق عليهما من قبل المؤلفين العرب، اسم العراقين أو المصرين، فالعراقان هما: البصرة والكوفة، روى الرازي[٤] بخصوص العراقين ما نصّه: «من العراق الكوفة والبصرة وبغداد، والذي يقول الناس العراقين، فالعراقان الكوفة والبصرة، واليمن تهامة»، وذكر المؤلفون ولاة كل منهما منفصلين، وأنهما كانا متمايزين، فذكروا ولاة خراج كل منهما، كما أشارت المصادر إلى وجود سوادين متمايزين، هما: سواد البصرة، وسواد الكوفة، وكان لكل منهما ديوانه الخاص، أي: ديوان البصرة وديوان الكوفة[٥].

عاشت الكوفة عصرها الذهبي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، الذين كانا يملآن مراحل النشأة والتطور والازدهار في تاريخ الحضارة الإسلامية في الكوفة، وهما اللذان شهدا أزهى مراحل حياتهما الأدبية والعقلية والفنية، لكن الكوفة واجهت تحدياً كبيراً بعد بناء مدينة واسط عام ٨١-٨٢هـ/ ٧٠٠-٧٠١م في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، كما واجهت تحدثاً أكثر تأثيراً منذ منتصف القرن الثاني الهجري، متمثلاً ببناء مدينة بغداد وبروز دورها باتخاذها عاصمة للخلافة

(١) جعيط، هشام، اليمنيون في الكوفة في القرن الأول الهجري، مجلة التراث، العدد٥، مركز البحوث والدراسات اليمني/ قصر ١٤ أكتوبر، عدن، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٧-٨، ناجي، إسهامات ص٤٧.

(٢) الزبيدي، د.محمد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٩١، ناجي، د.عبد الجبار، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، منشورات دار الحكمة/ جامعة البصرة، الطبعة الأولى، البصرة ١٩٨٦م، ص١٥٥، ٢٣٢.

(٣) الزبيدي، الحياة الاجتماعية ص٥، ٢٩٢، جعيط، اليمنيون ص٨.

(٤) الرازي، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، توفي بعد عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق: حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار، دمشق، ١٩٧٤م، ص٧، راجع أيضاً: إبراهيم، د.محمد كريم، البصرة في نصوص تاريخ مدينة صنعاء للرازي، سلسلة تراث البصرة، رقم١٣، منشورات المركز الثقافي بجامعة البصرة، مطبعة دار الحكمة، الطبعة الأولى، البصرة ١٩٩١م، ص٤٥.

(٥) للتفصيل، راجع: العلي، د.صالح أحمد، خطط البصرة ومنطقتها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٢٣٥-٢٣٦.

العباسية، في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عام ١٤٩هـ/٧٦٦م، بعد انتهاء مرحلة البناء التي بدأت عام ١٤٥هـ/٧٦٢م، وكان من أبرز نتائج ذلك اجتذاب العلماء والأدباء والمفكرين وأصحاب المهن والحرف والتجارة إليها، فاتسعت بنيتها السكانية على حساب المدن الأخرى، خصوصاً البصرة والكوفة، وكان ذلك التحدي التمدني مؤثراً بصورة واضحة بالنسبة إلى مدينة الكوفة، فقد انحل (تدهور) وضعها، وكان ذلك إيذاناً بأفول نجمها وضعف شأنها وبداية انحدارها، يتضح ذلك من وصف ابن حوقل[١] للكوفة في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذ يقول: «والكوفة في هذا الوقت وأعمالها وسوادها مضافة إلى مدينة السلام، ومرفوعة أعمالها إلى دواوينها». لكن ذلك التأثير كان أقل وأخف وطأة على مدينة البصرة، بفضل العامل الاقتصادي، المتمثل بدورها ووظيفتها التجارية، إذ تحولت من مدينة إدارية وعسكرية إلى مدينة تجارية ومركز جذب ونشاط اقتصادي متطور.

وعلى الرغم من كل تلك المؤثرات الكثيرة، حظيت مدينة الكوفة باهتمام العديد من المؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى الإسلامية، فقد لعبت دوراً مهماً جعلها تصبح عاصمة للخلافة طوال خمس سنوات في عهد الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ثم مركزاً للتشيع ومركزاً لدراسة الفقه والنحو واللغة والفلسفة، كما كانت قاعدة حربية ترابط فيها الجيوش العربية المقاتلة في العراق[٢].

التأليف عن الكوفة

تعد المؤلفات التي ألفت عن الكوفة ضمن كتب التواريخ المحلية وكذلك كتب فضائل البلدان التي ألفت لإبراز فضائلها، وهي تمثل شكلاً غير متكامل لتاريخ محلي ديني، وكانت تلك الفضائل أو الخواص تقترن بذكر مدينة أو إقليم معين، فتذكر فضائل أهلها، وهي تشبه تماماً مقدمات التواريخ المحلية الدنيوية والدينية[٣]، وتجدر الإشارة هنا إلى أن من بين المؤلفات الخاصة عن مدينة الكوفة، مؤلفات حملت عناوين: فضل الكوفة، فضائل الكوفة كما سنوضح.

تشكل التواريخ المحلية تطوراً مهماً في الكتابة التاريخية العربية، وتمثل انعكاساً لعدة منعطفات ومؤثرات شهدها المجتمع العربي، منها ما له علاقة ماسة بالموروثات العربية الحضارية، المتمثلة بدور المدن العربية، خصوصاً تلك التي لعبت دور: المدينة - الدولة، المدينة-الميناء، أو المركز التجاري أو المدينة الدينية، فضلاً عن الموروثات التي ظهرت على أثر الدعوة الإسلامية، ولا نغفل تأثير عامل المنافسة الحضارية، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهالي المدن والأمصار العربية الإسلامية، في إذكاء الحماس لتخليد المدن التي ينتمون إليها، وتوضح تلك المنافسة بجلاء انشداد الفرد العربي لمدينته ومصره وحبه لها ومفاخرته بها واعتزازه بالانتماء إليها، وهو ما نسميه بـ «المواطنة المحلية»، وقد ألف العرب في هذا الموضوع كثيراً من المؤلفات، عن المدن العربية: العراقية والسورية والمصرية والمغربية[٤].

علل البروفيسور روزنثال[٥] نشأة التواريخ المحلية في الإسلام، بقوله: «ومع أن كثيراً من التواريخ المحلية في الإسلام نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية، غير أن المفاخر الإقليمية كانت وراء مباحث العلماء»، وفي اعتقادنا أن ما ذكره روزنثال بهذا الخصوص، من الأمور المبالغ فيها كثيراً ولا يمكن قبولها بسهولة؛ لأن هناك عدداً من المؤرخين كتبوا عن تواريخ مدن هي ليست أصلاً مدنهم ولا صلة لها بإقليمهم، مما يدحض تلك الدعوة الإقليمية المزعومة، وبالإمكان ذكر أمثلة كثيرة تؤكد أن هنالك عدداً من المؤرخين في العراق والحجاز ومصر وغيرها، ألّفوا تواريخ مدن هي ليس مدنهم، مما يوضح بجلاء ابتعادهم عن تلك النظرة الإقليمية المحدودة، ويؤكد وحدة العالم العربي الإسلامي بشكل جلي[٦]، والأمر هذا ذاته ينطبق بكل وضوح على المؤرخين والمؤلفين الذين ألّفوا عدداً من الكتب والرسائل (الكتيبات) عن مدينة الكوفة، إذ كان بينهم من أهل الكوفة، فضلاً عن غيرهم من المدن والأمصار العربية والإسلامية الأخرى.

تعد حركات التحرير العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، من المؤثرات الأخرى التي حفزت على الاهتمام بكتابة التواريخ المحلية، فقد ألزمت تلك الحركات (حروب التحرير) المقاتلين العرب باتخاذ مراكز عسكرية، كانت في بادئ الأمر معسكرات لمرابطتهم مع عوائلهم خلال العمليات العسكرية الواسعة[٧]، وأكد روزنثال[٨] أن أصول الكتابة التاريخية في التواريخ المحلية ترجع إلى العراق، فكانت بداية نشأتها في العراق وليس في سورية.

(١) أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، ت:٣٦٧هـ/٩٧٧م، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٢١٥.

(٢) الزبيدي، الحياة الاجتماعية ص٢٩٦، ناجي، دراسات ص١٧٣، إسهامات ص٢٠.

(٣) روزنثال، البروفيسور فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: د.صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، ١٩٦٣م، ص٢٣٥.

(٤) ناجي، إسهامات ص٩٦-٩٧.

(٥) علم التاريخ عند المسلمين ص٢٠٦.

(٦) للاطلاع راجع: إبراهيم، البصرة ص١٢-١٣.

(٧) ناجي، إسهامات ص٩٧، ٢٣١.

(٨) علم التاريخ عند المسلمين ص٢٠٩.

والواقع أن المتتبع لنشأة التواريخ المحلية في التاريخ العربي الإسلامي، يجد أدلة عديدة تؤكد غزارة التأليف في الكتابات التاريخية عن المدن والأمصار العراقية، مثل: البصرة والكوفة وواسط والموصل وبغداد، وكان لقدم بعض الأمصار العربية الإسلامية، خاصة البصرة والكوفة أثر واضح في تلك المؤلفات، فهما يعدان من أوائل الأمصار الإسلامية التي أسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية، وكان للمقاتلين العرب فضل كبير في تأكيد أهميتهما؛ لأنهم وضعوا لبناتها الأولى أثناء مشاركتهم في الحملات العسكرية الأولى من حركات التحرير العربية الإسلامية، وبذلك أصبحا تربة ثقافية صالحة لظهور البواكير الأولى للتواريخ المحلية، فألفت العديد من المؤلفات (كتب، رسائل، كتيبات) في إبراز فضائل كل منهما على الأخرى[1].

وهكذا تتضح بجلاء عوامل وظروف عديدة أكدت بوضوح أهمية مدينة الكوفة ودورها في التاريخ العربي والإسلامي، منذ اختطاطها في خلافة عمر بن الخطاب من قبل القائد سعد بن أبي وقاص، واتخاذها فيما بعد عاصمة للخلافة العربية الإسلامية في عهد الخليفة علي بن أبي طالب(عليه السلام)، فضلاً عن العوامل الأخرى التي عرضناها آنفاً لتأكيد أهميتها، مما حدا بالمؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين أن يولوها أهمية خاصة، من خلال مؤلفاتهم عنها التي دونوا فيها تاريخها العام وتاريخها الخاص، بتخصيص مؤلفاتهم عن خططها وولاتها وقضاتها وعلمائها، فضلاً عن مؤلفات خصصت لإبراز فضائلها وفضائل أهلها، ومفاخرة مدينتهم على المدن الأخرى، وهو ما سندرسه في بحثنا هذا.

المؤلّفات الخاصة بالفضائل والمفاخرات عن الكوفة

برزت ظاهرة المنافسة بين المدن والأمصار العربية والإسلامية، تبعاً لأدوارها السياسية والفكرية، وبسبب أهميتها الاقتصادية وموقعها الجغرافي، وتعد هذه المنافسة ظاهرة حضارية إيجابية أغنت الأفق الفكري خلال تلك المرحلة التاريخية، لأنها حرّكت بشكل جدي اهتمام كتاب ومؤلفي كل مدينة من المدن إلى أن يكتبوا ويصنفوا المصنفات عن مدنهم، بما يتلاءم وإبراز الجوانب المشرقة لكل منها إزاء المدينة الأخرى.

لم تقتصر هذه الظاهرة على صعيد الكتابة التاريخية عن المدن فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى الصعيد العام وفي المناقشات والحوارات (المناظرات) والمجالس الثقافية، ولعب الخلفاء والأمراء والولاة دوراً مهماً في تطويرها وتنميتها، وهي كثيرة تزخر بها المؤلفات العربية الإسلامية المتنوعة، منها على سبيل المثال، ما ورد عن المدائني قصة تتعلق بخالد بن صفوان البصري، عندما ترأس وفداً من أهل البصرة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فتحدث أمام مجموعة من الوفود التي تمثل أهالي المدن والأمصار الأخرى، موضحاً فضائل ومحاسن مدينة البصرة، ويروى أيضاً أن الأحنف بن قيس التميمي فخر على الكوفيين أمام مصعب بن الزبير، كما فخر أبو بكر الهذلي في حضرة الخليفة أبي جعفر المنصور[2].

روى السمعاني[3] أنه سمع أبا الغنائم المسلم بن نجم المزني الكوفي بسمرقند، يقول: «فاخرت أهل الكوفة أهل البصرة، حتى وقعوا في القبائل، فكل قبيلة ذكرها أهل الكوفة ذكر أهل البصرة أن جماعة من هذه القبيلة نزلت بالبصرة طائفة منهم أيضاً، حتى وصل أهل الكوفة إلى همدان، فسكت أهل البصرة واعترفوا أن ليس بالبصرة من بني همدان أحد»[4]، وروى السمعاني أيضاً أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(رض) قال:

فلو كنت بواباً على باب جنةٍ
لقلت لهمدان ادخلوا بسلام[5]

وقد ألّف عدد من المؤرخين والكتاب مؤلفات (رسائل، كتيبات) في بيان فضل مدنهم، اشتملت على ذكر آيات من القرآن الكريم نزلت -حسب زعمهم- في معنى فضائل ذلك البلد، فضلاً عن أحاديث للرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) عن صلاح ومحاسن أهله، ويرى البروفيسور روزنثال[6] أن كتب فضائل البلدان تمثل شكلاً ناقصاً لتاريخ محلي ديني، وكانت كلمة: فضائل أو خواص حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تقترن بذكر مدينة أو إقليم، فهي تبين فضائل أهلها، وفيها أحياناً مفاخرات ومهاجاة مع مدينة أو إقليم آخر، وصارت عناوين الفضائل تدل عادة على كتاب يحتوي مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمصادر

(١) ناجي، إسهامات ص٩٧-٩٨، دراسات ص١٥٥.

(٢) الزبيدي، الحياة الاجتماعية ص٢٩٣، العلي، خطط البصرة ص٣٤-٣٥، ناجي إسهامات ص٢٣٢-٢٣٣.

(٣) أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، ت: ٥٦٢هـ/١١٦٦م، الأنساب، ج٥، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، منشورات دار الجنان، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٦٤٧.

(٤) راجع أيضاً: الشمري، أ.د. محمد كريم إبراهيم، استقرار قبيلة همدان في الكوفة حتى نهاية العصر الأموي، مجلة الذخائر، العدد الثامن (عدد خاص عن الكوفة)، السنة الثانية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١١١.

(٥) السمعاني، الأنساب ج٥/٦٤٧، وفي الهامش ورد بيت الشعر كالآتي:
إذا كنت بواباً على باب جنة
أقول لهمدان ادخلوا بسلام

(٦) علم التاريخ عند المسلمين ص٢٣٥.

المعتمدة التي تمتدح مكاناً معيناً، وهي تشبه تماماً ما نجده في مقدمات التواريخ المحلية (الدنيوية والدينية) للمدن والأقاليم.

استدعت الضرورة أن يعرض هؤلاء المؤلفون، الجوانب الإيجابية للمدينة التي ينتسبون إليها ومقارنتها بمدينة أو مصر آخر، وهذا ما يشبه أدب المدح والذم الذي اهتم به بعض المؤلفين والجغرافيين[1].

ألفت عن الكوفة عدة مؤلفات من رسائل وكتيبات صغيرة حول فضائلها وفضائل أهلها، فضلاً عن المفاخرات التي ألفت عن محاسنها وأبرز مواصفاتها، وهي مؤلفات ألفها مؤلفون من أهل الكوفة ومن خارجها من المدن والأمصار العربية والإسلامية الأخرى، وسندرس هذه المؤلفات حسب تسلسل مؤلفيها، ممهدين بدراسة كل مؤلف وحياته بتركيز، مع الإشارة إلى اسم مؤلّفه وما توفر لدينا من معلومات عنه مقتبسة من مصادر ترجمة المؤلف، وهم على التوالي:

١- الهيثم بن عدي:

هو الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد بن سيد بن جابر بن عدي بن خالد... بن ثعل بن عمرو بن الغوث، أبو عبد الرحمن الثعلي[2]، وقيل: الطائي[3]، وقيل: الطائي الكوفي[4]، وكان مطعوناً (يطعن) في نسبه[5]، أبوه من واسط وأمه من سبي منبج[6]، أما هو فمن أهل الكوفة بها ولد ونشأ، كانت ولادته فيها قبل عام ١٣٠هـ/٧٤٧م[7]، ثم انتقل إلى بغداد فسكنها وحدّث بها، كان عالماً بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب[8]، وصف بأنه: «أخباري علامة راوية، نقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً»، وكان يُطعن عليه في الحديث، ووصف بأنه: «ليس بثقة وكان يكذب»[9]، توفي الهيثم بفم الصلح[10] عام ٢٠٦هـ/٨٢١م، وقيل: ٢٠٧هـ/٨٢٢م، وقيل: ٢٠٩هـ/٨٢٤م، والمرجع وفاته بفم الصلح أول شهر محرم عام ٢٠٧هـ[11].

وقائمة كتب الهيثم طويلة جداً تقرب من الخمسين، ولعل بعضها رسائل صغيرة لكنها كثيرة التنوع، من بينها الكتب التي ألّفها في تواريخ الأقاليم، ومنها التي تتعلق بمدينة الكوفة، هي: كتاب خطط الكوفة، كتاب ولاة الكوفة، كتاب قضاة الكوفة والبصرة[12].

ذكر د.مصطفى[13] أنه لم يبق من هذه القائمة الطويلة من الكتب إلى الآن، سوى بعض المقتبسات التي نجدها لدى البلاذري في أنساب الأشراف، وابن قتيبة في كتاب المعارف، وتاريخ الطبري وفي مروج الذهب للمسعودي، وعلى الرغم من اتهام الهيثم بن عدي بقلّة التدقيق وتساهله في الإسناد، لكن هذا لم يمنع كثيراً من المؤرخين من أن يأخذوا عنه كثيراً، فقد اعتمده الطبري، خاصة فيما يتعلق بالأنبياء وبسيرة الرسول(ﷺ) والخلفاء الراشدين والأمويين، وبعض أخبار الخلفاء العباسيين مثل المنصور والمهدي.

ويضيف د.مصطفى أن الهيثم تميز بمواصفات خاصة في فكره ومنهجه التاريخي، منها: أنه أول من ألّف في الشؤون الحضارية والأثرية والنظم السياسية والقضائية، في كتبه عن خطط الكوفة والبصرة، وعن الولاة والقضاة والشرطة، وبذلك جمع معلومات طبوغرافية وجغرافية وسكانية وإدارية

(١) ناجي، إسهامات ص٢٣٤.

(٢) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب بن إسحاق، المعروف بـ الوراق، ت٣٨٠هـ/٩٩٠م، كتاب الفهرست للنديم، تحقيق: رضا - تجدد، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص١١٢، الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج١٤، عني بتصحيحه: السيد محمد صادق المعرفي، بيروت، د.ت، ص٥٠، مصطفى، د.شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٨٢.

(٣) الخطيب، تاريخ بغداد ج١٤/٥٠، ٥٤.

(٤) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، معجم الأدباء، المسمى: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج١٩، منشورات دار المشرق، بيروت، د.ت، ص٣٠٤.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص١١٢.

(٦) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٤/٥٤، وذكر الحموي أن أصله من منبج، وأمه من سبي منبج، معجم الأدباء، ج١٩/٣٠٤.

(٧) الحموي، معجم الأدباء، ج١٩/٣٠٤، وروى الخطيب عن يحيى بن معين أن الهيثم بن عدي: كوفي، تاريخ بغداد، ج١٤/٥٢.

(٨) ابن النديم، الفهرست، ص١١٢، الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٤/٥٣.

(٩) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٤/٥٢، الحموي، معجم الأدباء، ج١٩/٣٠٤.

(١٠) نهر كبير فوق واسط بينها وبينه جبل عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، مجلد٤، منشورات دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢٧٦.

(١١) عن الهيثم وحياته، راجع: ابن النديم، الفهرست، ص١١٢، الخطيب، تاريخ بغداد، ج١٤/٥٢-٥٤، الحموي، معجم الأدباء، ج١٩/٣٠٤-٣٠٩، وذكر الخطيب والحموي أن الهيثم بلغ ثلاث وتسعين سنة من عمره، وهذا وهم وخطأ، وذلك بالعودة إلى تاريخ ولادته بحدود عام ١٣٠هـ والصواب: أنه بلغ ثمان وسبعين سنة في الأعم الأرجح.

(١٢) راجع عن تفصيل مؤلفات الهيثم وأنواعها: ابن النديم، الفهرست، ص١١٢، الحموي، مجمع الأدباء، ج١٩/٣١٠، روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين ص٢٩١، نقلاً عن ابن النديم، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١/١٨٢-١٨٤، ماسنيون، المسيو لويس، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة: محمد تقي المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، الطبعة الأولى المحققة، مطبعة الغري الحديثة، النجف الأشرف، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص١٣٦ وهامشها.

(١٣) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١/١٨٥، وعن مؤلفات الهيثم، انظر المرجع نفسه، ج١/١٨٣-١٨٤.

وقضائية عن بعض الأمصار، تكشف عن مفهوم تاريخي متطور جداً وجدير بالتوقف عنده.

ألّف الهيثم ضمن قائمة مؤلّفاته الطويلة كتاب: فخر أهل الكوفة على أهل البصرة[1]، ولم تحدد لنا مصادر ترجمته المناسبة أو الأسباب التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، ولعله ألّفه اعتزازاً بمنزلة الكوفة التي ولد ونشأ فيها، إذ هنالك مفاخرات ومهاجاة عديدة بين أهل الكوفة والبصرة -كما ذكرنا.

وبخصوص مفاخرة أهل الكوفة على أهل البصرة، روى الدينوري[2] أن ابن عياش الكوفي فاخر أبا بكر الهذلي البصري عند الخليفة العباسي السفاح، إذ يقول: «وقال ابن عياش لأبي بكر الهذلي يوم فاخره عند أبي العباس: إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببرده وعذوبته، والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده»، ولعل هذه المفاخرة ومفاخرات أخرى، قام الهيثم بجمعها في مؤلف صغير، بعنوان: فخر أهل الكوفة على أهل البصرة. وأشار الجاحظ إلى عدد من المناظرات التي جرت بين عامة الناس في الكوفة والبصرة[3].

٢- المدائني:

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف، مولده عام ١٣٥هـ/٧٥٢م، وهو بصري، مولده ونشأته في البصرة، ثم انتقل إلى المدائن وصار إلى بغداد، ولم يزل بها إلى أن توفي، كان المدائني على اتصال مع إسحاق بن إبراهيم الموصلي، منقطعاً إليه لا يفارق منزله، وفي منزله كانت وفاة المدائني عام ٢١٥هـ/٨٣٠م[4]، وكان ثقة إذا حدّث عن الثقات[5].

وقائمة مؤلفاته طويلة جداً، منها كتبه عن الفتوح، وهي: فتوح العراق، كتاب خبر البصرة وفتوحها، كتاب فتوح الحيرة، فضلاً عن كتب أخرى كثيرة في الفتوح، وتتصف كتبه في هذا المحور، بالشمولية فلم تحدد كتاباته التاريخية في منطقة جغرافية دون أخرى[6].

ومن مؤلفات المدائني الخاصة عن الكوفة، كتاب: مفاخرة أهل البصرة وأهل الكوفة[7]، وسمي: مفاخرة أهل البصرة والكوفة[8]، ولعله قلد في تأليف كتابه هذا، سلفه الهيثم بن عدي في إبراز المفاخرات بين مدينتي الكوفة والبصرة، ومنافسة كل منهما الأخرى في مواصفات ومجالات معينة، روى الدينوري[9] قول الحجاج في وصفهما، من أن الكوفة بكر حسناء، والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلي وزينة.

٣- ابن فضال التميمي الكوفي:

أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن فضال بن أنيس التميمي الولاء الكوفي، توفي والده الحسن بن علي بن فضال عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م[10]، ووصف ابنه علي هذا بأنه:

ثقة كوفي كثير العلم واسع الرواية والأخبار، جيد التصانيف، وكتبه في الفقه مستوفاة وفي الأخبار حسنة، وتاريخ ولادته مجهول. ذكر د.مصطفى[11] عنه أنه من أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ولا يمكننا بالضبط تحديد ماذا يقصد بذلك، ولعله يقصد أنه من مواليد أواسط ذلك القرن، أو أنه كان حياً في أواسط ذلك القرن، إذ أن والده الحسن توفي عام ٢٢٤هـ -كما ذكرنا- ولعل ولده علياً برز أواسط ذلك القرن، وتوفي أواخره، أو في الربع الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر

(١) ابن النديم، الفهرست، ص١١٢، الحموي، معجم الأدباء، ج١٩/٣١٠، روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ص٢٩١ (نقلاً عن ابن النديم)، مصطفى، التاريخ العربي، ج١٨٤/١، ماسنيون، خطط الكوفة، ص١٣٦ وهامشها.

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت:٢٧٦هـ/٨٨٩م، عيون الأخبار، مجلد١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ص٢٢٠، راجع حول قول خالد بن صفوان عن الكوفة، والأحنف بن قيس عن البصرة، المصدر نفسه، ص٢١٧.

(٣) الدينوري، عيون الأخبار، مجلد٢١٧/١، راجع أيضاً: الزبيدي، الحياة الاجتماعية ص٢٩٣.

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص١١٣، الحموي، معجم الأدباء، ج١٢٤/١٤-١٢٥، وقيل توفي عام ٢٢٥هـ/٨٣٩م، وله ثلاث وتسعون سنة، ابن النديم، الفهرست ص١١٣، الحموي، معجم الأدباء، ج١٢٥/١٤.

(٥) الحموي، معجم الأدباء، ج١٢٦/١٤.

(٦) ابن النديم، الفهرست، ص١١٣-١١٧، الحموي، معجم الأدباء، ج١٤-١٢٩-١٣٩، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٨٥/١، ١٨٨، ناجي، إسهامات، ص٨٣-٨٥، ١١٠-١١٤.

(٧) ابن النديم، الفهرست، ص١١٧، روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ص٢٩١ (نقلاً عن ابن النديم)، العلي، خطط البصرة، ص١١.

(٨) الحموي، معجم الأدباء، ج١٣٨/١٤، ماسنيون، خطط الكوفة، ص١٣٦، هامش.

(٩) عيون الأخبار، مجلد٢٢٠/١، راجع أيضاً: الزبيدي، الحياة الاجتماعية، ص٢٩٣.

(١٠) ابن النديم، الفهرست، ص٢٧٨، النجاشي، أحمد بن علي بن أحمد بن العباس، ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، كتاب الرجال، جابخانة مصطفوي، مركز نشر كتاب، طهران، د.ت، ص٢٤، الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، ت:٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، الفهرست، المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف الأشرف، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص١٣٢، ابن حجر، أحمد بن علي، ت:٨٥٢هـ/١٤٨٨م، لسان الميزان، ج٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٠هـ ص٢٢٥، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، ت:٩٠٢هـ/١٤٩٧م، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، نشره: فرانز روزنثال (مطبوع بعد كتاب علم التاريخ عند المسلمين)، ترجمة: د.صالح أحمد العلي، بغداد، ١٩٦٣م، ص٥٧٩ وهامشها، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢٠٦/١.

(١١) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢.

الميلادي، وكل هذه الفرضيات غير مؤكدة، وهي مجرد احتمالات لا غير؛ لأن مصادر ترجمته[1] لا تفصح لنا بشيء عنها.

وكتبه كثيرة، قيل أنها ثلاثون كتاباً، منها: كتاب الطب، وكتاب الدلائل، وكتاب المعرفة، وبخصوص الكوفة عرف كتابه عنها بعنوان: فضل الكوفة[2]، وسمي أيضاً: فضائل الكوفة[3]، كما سمي: كتاب الكوفة[4]، ولعل هذا التسميات الثلاث هي تسمية لكتاب واحد في الأعم الأغلب، ويتضمن هذا الكتاب بيان فضل الكوفة أو فضائلها، وهو كتاب حول الكوفة، لذا سمي: كتاب الكوفة؛ ويتضح لنا أن الكتاب اهتم بمدينة الكوفة وإبراز فضلها أو مجموعة فضائلها، فهو من كتب الفضائل الخاصة بمدينة الكوفة، ومن المؤسف أن هذا الكتاب مفقود -حسب علمنا- ولا نعرف عنه شيئاً سوى عنوانه بثلاث صيغ مختلفة -كما ذكرنا- كما لم نجد عنه اقتباسات أو نقول في مصادر أخرى.

٤- ابن تمام الدهقان:

أبو الحسن محمد بن علي بن الفضل بن تمام الدهقان الكوفي، أصله من الكوفة، له كتب، منها: كتاب الفرج، في الغيبة، كبير حسن[5]، وانفرد ابن النديم[6] فذكر له من الكتب، كتاب: فضائل الكوفة[7]. وقيل: أن اسم الكتاب الذي ألّفه محمد بن تمام الدهقان، هو: فضل أهل الكوفة[8].

وهنالك شك كبير حول تأليف ابن الدهقان هذا، كتاب فضائل الكوفة، إذ أشار د.مصطفى[9] إلى أن كتاب فضائل الكوفة، من تأليف: علي بن الحسن بن فضال التميمي الكوفي، من أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي -الذي ترجمنا له آنفاً- وذكره ابن النديم[10] باسم: أبي الحسن محمد بن علي بن الفضل بن الدهقان، ونستنتج مما ذكره د.شاكر مصطفى، أن ابن النديم هو الذي نسب كتاب فضائل الكوفة لابن الدهقان، في حين أن المؤلف الصحيح له هو: ابن فضال التميمي الكوفي، أي أن هنالك خلطاً والتباساً وقع فيه ابن النديم، حول نسبة هذا الكتاب إلى مؤلف آخر، ولعلنا لا نجزم بهذا الرأي مطلقاً، بسبب تكرار وتشابه عناوين هذه المؤلفات واختلاف أسماء مؤلفيها، إذ ألف العديد من المؤلفين كتباً تحت عناوين: فضل الكوفة، فضائل الكوفة -كما ذكرناها.

ومما يضعف ويقلل من تأكيد مسألة تأليف ابن الدهقان، كتاب: فضائل الكوفة، أن ابن الدهقان أو ابن الدهجان، كما هو شائع في العديد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة[11]، لم يؤلف كتاباً عن الكوفة، بل اشتهر بتأليف كتاب عن البصرة، لعله: تاريخ البصرة، استناداً إلى ما ذكره السخاوي[12] حول تأليف كتابين للبصرة، أحدهما لابن شبة، والثاني لابن الدهجان، لكنه لم يذكر اسم مؤلفه الأخير بصورة واضحة، فضلاً عن عدم ذكره اسم كتابه أو عنوانه الصريح.

ويحتمل د.العلي[13] أن مؤلف كتاب: فضائل الكوفة، هو محمد بن علي بن الفضل بن الدهقان، وهذا مجرد احتمال يثير الشكوك؛ لأن المصادر السابقة -التي ذكرناها- لا تفصح لنا عن شخصية ابن الدهجان أو: ابن دهجان، مؤلف تاريخ البصرة أو كتاب البصرة، لكي نقارن بين المؤلفين، بل نكتفي بذكر اسمه المجرد هذا فقط كما لم تذكر إطلاقاً تأليفه كتاباً عن الكوفة.

أشار د.مصطفى[14] إلى شخصية ابن دهجان آخر، لعله يحمل اللقب أو هذه الشهرة، وهو متأخر من رجال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، اسمه: أبو حفص عز الدين عمر بن علي بن دهجان المتوفى بعد عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، ألف تاريخ البصرة الأخير وتاريخ واسط ونؤكد عدم وجود علاقة لهذا الرجل مع ابن الدهقان مؤلف كتاب فضائل الكوفة؛ لوجود بون شاسع جداً بين الرجلين ضمن العصر والقرن الذي عاش فيه كل واحد منهما، فابن الدهقان أو

(١) راجع: النجاشي، الرجال، ص١٨١-١٨٢، الطوسي، الفهرست، ص١١٨، السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص٥٧٩-٥٨٠، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢.

(٢) الطوسي، الفهرست، ص١١٨، روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ص٣١٥.

(٣) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢، روزنثال، هامش كتاب الإعلان بالتوبيخ للسخاوي، ص٥٧٩.

(٤) النجاشي، الرجال، ص١٨٢، البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلد٢، طبعة أوفسيت، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص٣٢٥.

(٥) الطوسي، الفهرست، ص١٨٨.

(٦) كتاب الفهرست، ص١٢٢ (وقد انفرد بذكر اسم كتابه هذا)، ووصف الطوسي ابن تمام الدهقان الكوفي بأنه كثير الرواية، ولم يذكر له تأليف هذا الكتاب، الفهرست، ص١٨٨.

(٧) وممن ذكر التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢، وذكر أنه ثبت اسم ابن الدهقان كما جاء في كتاب ابن تمام الدهقان، بعنوان: فضائل الكوفة، (نقلاً عن ابن النديم): روزنثال، الإعلان بالتوبيخ للسخاوي، ص٦٣٩، هامش، العلي، خطط البصرة، ص١٤، هامش.

(٨) خطط الكوفة وشرح خريطتها لماسنيون، ص١٣٧، هامش.

(٩) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢، وذكر أنه ثبت اسم ابن الدهقان كما جاء في كتاب الفهرست للطوسي، وأن ابن النديم يذكره بشكل آخر.

(١٠) كتاب الفهرست، ص١٢٢، راجع هامش رقم٥٠ من هذا البحث.

(١١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت:٧٦٤هـ/١٣٦٢م، الوافي بالوفيات، ج١، باعتناء: هلموت ريتر، دار النشر فرانز شتايز، الطبعة الثانية، فيسبادان، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٤٧، السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص٦٣٩، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي، ت:١٠٦٧هـ/١٦٥٧م، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مجلد١، طبعة أوفسيت، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص٢٨٧، العلي، خطط البصرة، ص١٤.

(١٢) الإعلان بالتوبيخ، ص٦٢١.

(١٣) خطط البصرة، ص١٤، هامش.

(١٤) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٧/٢.

الدهجان مؤلف كتاب فضائل الكوفة عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، في الأعم الأرجح، وترجم له ابن النديم صاحب كتاب الفهرست المشهور جداً، والمتوفى في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في حين أن ابن الدهجان الأخير هذا توفي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

إن هذا الأدلة التي سقناها ترجح لنا تماماً وبصورة جلية واضحة أن ابن تمام الدهقان، الذي انفرد ابن النديم بذكر تأليفه كتاب: فضائل الكوفة، هو المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب، مع تحفظنا حول مسألة عدم ذكر المصادر العربية القديمة والمراجع والدراسات الحديثة، لاسمه الصريح وعدم ذكرها تأليف كتابه عن الكوفة، إذ إنها لم تذكر وتوضح لنا تفاصيل أو معلومات كافية عن شخصيته وكذلك عن كتابه، فلم نجد فيها ما يشير إلى تاريخ ولادته ونشأته الأولى ولا تاريخ وفاته، فبقيت معظم عناصر شخصيته غامضة ومجهولة، ولا نستبعد أن ابن النديم خلط بينه وبين شخصية علي بن الحسن بن فضال التميمي الكوفي، الذي كان -هو الآخر- غامض الشخصية في أمور كثيرة -كما ذكرنا- وكان كل واحد منهما قد ألف كتاباً بعنوان: فضائل الكوفة، فنسب ابن النديم كتاب ابن فضال التميمي إلى ابن تمام الدهقان الكوفي، الذي ترجم له الطوسي[1] دون أن يشير -كما ذكرنا- إلى تأليفه كتاب: فضائل الكوفة، وهذه الأفكار كلها محض احتمالات وفرضيات غير نهائية، فلعل الأيام القادمة تزيل هذا الخلط والالتباس، بكشف مخطوطات ومصادر جديدة تجلي الغموض عن هذه الأمور المهمة.

٥- الثقفي الأصفهاني:

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد[2] بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي الأصفهاني[3]، والثقفي نسبة إلى ثقيف القبيلة العربية المشهورة، قبيلة الحجاج بن يوسف، كان مسكنها الطائف[4].

وبخصوص حياة إبراهيم الثقفي الأولى، ونشأته وتاريخ ومكان ولادته، فكل هذه الأمور المهمة، مجهولة لدينا تماماً؛ لأن مصادر ومراجع ترجمته التي تيسر لنا الاطلاع عليها، لم تفصح -مع الأسف الشديد- عن هذه الأمور المهمة بشكل أو بآخر، وكل ما عرفناه عنه أنه كوفي الأصل، انتقل من الكوفة إلى أصفهان، وكان على المذهب الزيدي، ثم رجع إلى اعتقاد الإمامية، وكان ذلك هو سبب انتقاله إلى أصفهان، وضياع معظم كتبه، ولا تحدد لنا مراجع ترجمته[5] المحدودة جداً، تاريخ انتقاله إلى أصفهان التي ألف عنها كتابا، سمي: كتاب الأصفهان، فضلاً عن أنها لا توضح لنا عوامل انتقاله، التي نرجح أنها تتعلق بمواقفه السياسية والدينية من الدولة العباسية؛ نظراً لاعتناقه المذهب الشيعي سواء كان زيدياً في بادئ أمره، أم إمامياً بعد تحوله إلى مذهب الشيعة الإمامية، ونرجح أنه كان عالماً واسع المعرفة من خلال مؤلفاته الكثيرة، مما عرضه إلى المضايقة والملاحقة من قبل السلطات العباسية، فالتجأ إلى مغادرة الكوفة إلى أصفهان والاستقرار فيها، وكان من أبرز نتائج ذلك التحول ضياع معظم كتبه، التي ربما تركها هرباً من ملاحقة ومتابعة السلطات العباسية له.

والثقفي -كما ذكرنا- مؤلف مكثر، غزير الإنتاج، أصله من الكوفة، ثم انتقل إلى أصفهان واستقر فيها، وقائمة كتبه الكثيرة -التي ضاع معظمها- تشبه قائمة مؤلفات المدائني في عنواناتها، ولعلها مثلها، معظمها عبارة عن كراسات أو رسائل صغيرة، تناولت: السقيفة والردة ومقتل الخليفة عثمان وصفين والحكمين[6].

وصفه ابن النديم[7] بأنه: من الثقات العلماء المصنفين، وذكر من مؤلفاته: كتاب أخبار الحسن بن علي(رض)، ووصف أيضاً[8] بأنه: من أجلاء الرواة المؤلفين.

ومن مؤلفاته الخاصة عن مدينة الكوفة، كتاب: فضل الكوفة[9]

---

(١) الفهرست، ص١٨٨، ترجمة ابن تمام الدهقان الكوفي، راجع هامش ٥٠.

(٢) ذكره بكنيته واسمه الثلاثي هذا فقط: مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٩٧/١، وترجم له ابن النديم: الثقفي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأصبهاني، الفهرست، ص٢٧٩، وفي هامش كتاب خطط الكوفة لماسنيون، ص١٣٧: إبراهيم بن محمد الثقفي.

(٣) راجع عن كنيته ونسبه ولقبه هذا كاملاً: ابن حجر، لسان الميزان، ج١، ص١٠٢، العاملي، السيد محسن بن عبد الكريم الأمين، أعيان الشيعة، ج٥، مطبعة الإنصاف، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ص٣٦٠، وورد كذلك أنه: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي، المرجع نفسه، ج٥، ص٣٦١.

(٤) العاملي، أعيان الشيعة، ج٣٦٠/٥، وأضاف إلى مسكن قبيلة ثقيف الطائف: (وأصفهان)، ولعله يريد إيضاح أن مسكن قبيلة ثقيف الأصلي هو الطائف، ثم انتقل قسم منها إلى أصفهان، في إشارة له إلى انتقال إبراهيم الثقفي إلى أصفهان واستقراره فيها، وربما لحق برهط من قبيلته التي كانت مستقرة فيها قبل وصوله إليها.

(٥) خطط الكوفة لماسنيون، ص١٣٧، هامش، وعن حياة الثقفي ومذهبه وانتقاله إلى أصفهان، راجع: العاملي، أعيان الشيعة، ج٣٦٠/٥-٣٦١، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٩٧/١.

(٦) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١٩٧/١.

(٧) الفهرست، ص٢٧٩، راجع أيضاً: العاملي، أعيان الشيعة، ج٣٦٠/٥.

(٨) العاملي، أعيان الشيعة، ج٣٦١/٥.

(٩) المرجع نفسه، ج٣٦٤/٥، ونقل عن إحدى الروايات بقية مؤلفاته، ومنها: كتاب إمامة الكبير والصغير وكتاب فضل الكوفة.
ومن مؤلفات إبراهيم بن محمد الثقفي المنشورة، كتاب الغارات، أو الاستنفار والغارات، تحقيق وتعليق: عبد الزهرة الحسيني الخطيب، دار الأضواء، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧م.
وسمي: الغارات، ج١-٢، تحقيق: جلال الدين المحدث، مطبعة بهمن، قم، د.ت.

ومن نزلها من الصحابة[1]، وصفه د.شاكر مصطفى[2] بأنه: من أول كتب فضائل البلدان، وعلى الرغم من لغة المبالغة الواضحة في هذا القول، إلا أن الدكتور مصطفى أراد التعبير عن أن هذا الكتاب يعد من المؤلفات الأولى في التأليف عن فضائل البلدان، فهذه المؤلفات معروفة تماماً في مناهج المؤلفين والمؤرخين والمحدثين العرب والمسلمين، قبل تأليف الثقفي كتابه هذا عن فضل الكوفة، وقد سبق لنا أن أشرنا إليها في بحثنا هذا بوضوح، وهي تسبق عصر الثقفي وتسبقه في مجال التأليف الخاص بفضائل البلدان، وكتاب الثقفي لا يخلو من الأهمية، ويعد من الكتب الأولى أي المتقدمة في هذا المجال الرحب الواسع، الذي تناول فضائل المدن والبلدان والأقاليم، وفي مقدمتها الكوفة والبصرة وغيرهما من الأمصار العربية والإسلامية، والتي تعود إلى زمن يسبق عصر إبراهيم الثقفي، فضلاً عن مؤلفات تتعلق بالمفاخرات الخاصة بين تلك المدن والأمصار والأقاليم العربية والإسلامية.

توفي إبراهيم الثقفي بمدينة أصفهان عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م[3]، وقيل كانت وفاته بأصفهان عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م[4]، لكننا نرجح وفاته في التاريخ الأول -الذي أكده بعض مترجميه- في الأعم الأغلب.

٦- أبو عبد الله العلوي الحسيني:

لعل مسك الختام في بحثنا المتواضع هذا عن المؤلفات الخاصة بفضائل الكوفة ومفاخراتها، يرتبط بذكر مؤلف عنها للسيد أبي عبد الله محمد بن علي[5] بن الحسن (الكوفي العلوي الحسيني)[6] بن عبد الرحمن الحسيني[7]، المتوفى عام ٤٤٥هـ/١٠٥٣م[8]، وقيل توفي عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م[9]، ونرجح وفاته في التاريخ الأول، لأن التاريخ الأخير ورد على نسخة السماع لكتابه المخطوط الآتي ذكره، وهذا لا يعتمد تاريخاً لوفاة المؤلف في أغلب الأحيان.

لا نعرف شيئاً عن حياة المؤلف الأولى ونشأته، من حيث تحديد تاريخ ولادته ومكانها، له من الكتب: كتاب فضل الكوفة[10]، وفضل أهلها[11]، والكتاب مخطوط[12].

ورد ذكره عند ابن النديم[13]: الحسني، أبو عبد الله، وله من الكتب: أخبار المحدثين، كتاب أخبار معاوية، كتاب الفضايل، كتاب الكشف. ولعل ابن النديم ترجم لمؤلف آخر غير مؤلفنا هذا، فلم يذكر سوى كنيته (أبو عبد الله) وشهرته (الحسني)، في حين يختلف عنه في ذكر أسماء مؤلفاته، فقد ذكر السيد محسن العاملي[14] اسم المؤلف السيد محمد الحسيني، ومؤلفاته هي: كتاب التعازي، كتاب الكرامات الظاهرة من قبر أمير المؤمنين، كتاب فضل الكوفة.

احتوى كتاب فضل الكوفة، ما ورد من أقوال في فضل الكوفة: هوائها وإقليمها وأهلها وذكر بنائها، أوله بعد البسملة: «ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الكوفة، أخبرنا الشريف عبد الله بن الحسن[15] بن عبد الرحمن الحسني رضي الله عنه قال...».

آخره: «قال إن الكوفة دار هجرة مرتين... قال الكوفة حرم نوح وحرم هود وهي حرمنا في آخر الزمان».

---

(١) ورد ذكر اسم كتابه: فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة، راجع: ابن حجر، لسان الميزان، ج١/١٠٣، العاملي، أعيان الشيعة، ج٥/٣٦٣، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١/١٩٧، خطط الكوفة لماسنيون، ص١٣٧، هامش.

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١/١٩٧.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان، ج١/١٠٣، العاملي، أعيان الشيعة، ج٥/٣٦٠، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١/١٩٧، خطط الكوفة لماسنيون، ص١٣٧، هامش.

(٤) ابن حجر، لسان الميزان، ج١/١٠٢، ونقل عنه: العاملي، أعيان الشيعة، ج٥/٣٦٢.

(٥) أبو عبد الله محمد بن علي العلوي الحسني، خوري، إبراهيم، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الجغرافية وملحقاتها)، دمشق، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م، ص١٠١.

(٦) أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الكوفي العلوي الحسيني، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢/١٨.

(٧) العاملي، أعيان الشيعة، ج٤٦، حققه وأخرجه: حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص١١٨، ولم يذكر كنيته: أبو عبد الله.

(٨) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢/١٨.

(٩) خوري، فهرس مخطوطات، ص١٠١، واعتمد في تحديد وفاته على تاريخ النسخة المخطوطة لكتاب: فضل الكوفة وفضل أهلها للمؤلف الحسني، وهي نسخة عليها سماع سنة ٤٧٤هـ على أبي الغنائم النرسي، المرجع نفسه، ص١٠٢.

(١٠) سمي: فضل الكوفة، العاملي، أعيان الشيعة، ج٤٦/١١٨، مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢/١٨.

(١١) العنوان الكامل (فضل الكوفة وفضل أهلها) نقلاً عن خوري في النسخة المخطوطة، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص١٠١.

(١٢) مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق، رقم ٣٨٢٩مجموع، في ١٧ ورقة، كل ورقة ٢٢سطر، مقياس كل ورقة ١٨،٥ ﷺ ١٣سم، خوري، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص١٠٢.

وسماه مصطفى: كتاب فضل الكوفة، مخطوط بالظاهرية في دمشق، مجموعة ٩٣، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢/١٨.

(١٣) الفهرست، ص٢٣٤.

(١٤) أعيان الشيعة، ج٤٦/١١٨.

(١٥) هذا ليس الاسم الصحيح لمؤلف كتاب: فضل الكوفة وفضل أهلها، بل هو: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن عبد الرحمن الحسيني، اللهم إلا إذا كان راوية روى عنه مؤلف الكتاب الحقيقي.

عن حياة المؤلف: راجع مقدمة كتاب: فضل الكوفة وفضل أهلها، تأليف: العلامة محمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي ٣٦٧-٤٤٥هـ/٩٧٧-١٠٥٣م، بقلم: الأستاذ محمد سعيد الطريحي، ص٨-٢١.

نسخة عليها سماع سنة ٤٧٤هـ على أبي الغنائم النرسي[١].

ونرجح أن هذا الكتاب يعد من كتب الفضائل الخاصة بالمدن، احتوى أقوال الرسول الكريم(ﷺ) في فضل مدينة الكوفة وأهلها وبيان محاسنها، وهي أقوال رتبها المؤلف للمفاخرة بمدينته ومفاضلتها على المدن الأخرى، من خلال إبراز فضائلها بذكر رسول الله(ﷺ) لها، وبيان ما ورد من أقوال في هوائها وإقليمها وأهلها وذكر بنائها.

لقد تناهى إلى أسماعنا أن كتاب فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة، قد حقق ونشر، فظهر إلى النور[٢]، وحبذا لو خرجت المؤلفات الأخرى إلى النور، لتضيف إلى معرفتنا مزيداً من المعلومات المتعلقة بمدينة الكوفة، وتكشف لنا دورها في مسيرة التاريخ العربي الإسلامي وموكب الحضارة العربية الإسلامية.

في ختام دراستنا عن كتب الفضائل والمفاخرات التي ألفت خصيصاً عن مدينة الكوفة، نشير إلى كتابين ذكرهما روزنثال[٣] دون التطرق إلى دراستهما ودراسة حياة مؤلفيهما، بل نكتفي فقط بالإشارة إليهما، هما: كتاب فضل الكوفة لأحمد بن محمد بن عقدة الحافظ وكتاب: فضل قم والكوفة، لسعد بن عبد الله القمي.

إن هذه المؤلفات عموماً، تشكل لوناً زاهياً من ألوان الكتابة التاريخية، التي ازدهرت لتبرز فضائل المدن والأمصار العربية والإسلامية، ومنها: مدينة الكوفة، المصر الثاني الذي بني في ظل الدولة العربية الإسلامية، في العراق بعد مدينة البصرة، وتزداد أهمية هذه المؤلفات جميعها التي درسناها في بحثنا المتواضع هذا، لو نشرت ووجدت طريقها إلى النور، لإفادة الباحثين والمؤرخين والمثقفين من هذا التراث العربي الإسلامي الخالد.

الخلاصة:

أوضح البحث الأهمية المتميزة لمدينة الكوفة منذ نشأتها في العقد الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، من خلال الكتابات التاريخية عنها من قبل المؤلفين العرب والمسلمين، إذ كان التاريخ العربي الإسلامي في ذلك القرن هو تاريخ البصرة والكوفة، وذلك لأدوارهما السياسية والإدارية والعسكرية المهمة، كما اقتسم هذان المصران الحركة الفكرية العربية.

تعد البصرة والكوفة من أوائل الأمصار العربية والإسلامية التي أسسها العرب خارج شبه الجزيرة في الإسلام، أطلق عليهما المؤلفون اسم: العراقين أو المصرين، وكان لكل مصر منهما ولاته وسواده وديوانه الخاص، وهكذا حظيت الكوفة باهتمام متميز من قبل المؤلفين العرب والمسلمين، فقد ازدهرت الحياة فيها بعد تمصيرها، في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ولعبت دوراً مهماً جعلها تصبح عاصمة الخلافة طوال خمس سنوات في خلافة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ثم مركزاً للتشيع ومركزاً لدراسة الفقه والنحو واللغة والفلسفة، كما كانت منذ تمصيرها قاعدة حربية ترابط فيها الجيوش العربية المقاتلة في العراق.

ونظراً لأهمية مدينة الكوفة، تنوعت المؤلفات العربية والإسلامية عنها من كتب ورسائل صغيرة، وهي على قسمين، الأول: المؤلفات المتعلقة بفضائل الكوفة والمفاخرات بينها وبين البصرة بشكل خاص، وتناولت فضل الكوفة، ومن نزلها من الصحابة، وفضل الكوفة وأهلها، وفضائل الكوفة، وهي المؤلفات التي درسناها في بحثنا المتواضع هذا، أما القسم الثاني من المؤلفات عن الكوفة، فهي المؤلفات ذات الصبغة التاريخية، التي توزعت على مؤلفات تتعلق بتاريخ الكوفة وأحداث بارزة فيه، وأخرى خصصت لجزء من تاريخها الحضاري، مثل: الخطط والولاة والقضاة وأصحاب الشرط وأخذت دراسة هذه المؤلفات طريقها إلى النشر في بحث خاص.

انقسم المؤلفون العرب والمسلمون من خلال تلك المؤلفات إلى قسمين: الأول هم من أهل الكوفة أو من استقر فيها وصار كوفياً، والثاني من غير أهل الكوفة، أي: من الأمصار العربية والإسلامية الأخرى.

من المؤسف أن معظم تلك المؤلفات مفقودة حالياً، والمنشور منها محدود تماماً، فضلاً عن إشارات واقتباسات منها، مبثوثة في ثنايا المصادر، راجين أن يكون بحثنا قد كشف عن كثير مما خفي من تاريخ مدينة الكوفة العريقة، سائلين الله أن ينفع به الناس، راجين منه القبول والفائدة، والحمد لله رب العالمين إنه الموفق والهادي إلى صالح الأمور، آملين عفوه وهو المستعان الغفور.

---

(١) خوري، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص١٠١-١٠٢، ونكرر هنا وهم وخطأ الأستاذ إبراهيم خوري الذي جعل تاريخ السماع هذا عام ٤٧٤هـ تاريخ وفاة المؤلف، ونرجح أن ما ذكره د.شاكر مصطفى عن وفاته عام ٤٤٥هـ هو الأقرب للصواب، راجع هامش رقم ٧٥.

(٢) حقق الجزء الأول من كتاب: فضل الكوفة وفضل أهلها الأستاذ محمد سعيد الطريحي، منشورات أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به، الإصدار الأول، ٢٠٠٩م، في ٩٤ صفحة.

(٣) علم التاريخ عند المسلمين ص٣١٥.
ومن المؤلفات المتأخرة الخاصة عن الكوفة التي حققت ونشرت مؤخراً، كتاب: فضل الكوفة ومساجدها، تأليف: محمد بن جعفر المشهدي، المتوفى عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، حققه: محمد سعيد الطريحي، طُبع بعد كتاب: فضل الكوفة وفضل أهلها للعلامة محمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي، الطبعة الثالثة، أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به، ٢٠٠٩، ص٩٥-١٣٦.